إثــراء
المعارف الرقمية

بريد الجمعـــــة

بريد الجمعة
الجُمعَة ١٦ يناير ١٩٩٨

يكتبه: عبد الوهـاب مطاوع

الامتحان النهائى

انا شاب عمرى ٢٦ عاما سوف اؤدى امتحانى النهائى خلال أيام وانهى دراستى الجامعية بإذن الله. ولقد جئت إلى الحياة بعد ستة من الإخوة سبقونى إلى الدنيا، وجاء بعدى خمسة اخرون فاكتمل عدد الابناء اثنى عشر بالتمام والكمال لأب مزارع بسيط، ثم رحل ابى عن الحياة وانا تلميذ صغير بالصف الثالث الابتدائى وتركنا بلا معين إلا الله سبحانه وتعالى.. ولا عماد لنا فى الحياة إلا ماوانا فى المنزل الصغير الذى نقيم به بإحدى قرى محافظة الشرقية.

ولك ان تتخيل حال أسرة من ١٢ ابنا وأمهم كانوا يلاطمون امواج الحياة فوق مركب صغير يقوده ربان مكافح، فإذا بهذا الربان نفسه يغرق فى البحر العاتى ويترك السفينة المثقلة بالأبناء، تتلاعب بها الرياح، كيفما تشاء. لقد كان هذا هو حالنا بالفعل حين رحل عنا ابى يرحمه الله، لكنه ليس الرجال وحدهم فقط هم الذين يصمدون لأعتى العواصف، فمن النساء أيضا من وهبهن الله برحمته هذه القدرة على مغالبة الاقدار والامواج.. ولقد كانت أمى واحدة من هؤلاء النساء المكافحات الصابرات، فرفضت الزواج من عم ثرى لى بعد رحيل أبى واستقلت بنا عن أسرة أبى وواجهت الحياة بشجاعة وعملت بالتجارة البسيطة التى لا تغنى ولا تسمن من جوع لكى تسد رمق جيش الصغار المعلق فى رقبتها، وتحملنا معها شظف الحياة وقسوتها صابرين ومشفقين عليها مما تتحمله من هموم كالجبال، وألفنا بلا شكوى أن نطعم يوما ونجوع يوما آخر، وأن نحتمى من برد الشتاء بغطاء خفيف كالشفوف، وخضنا مع أمنا المجاهدة حربا مع الحياة كحرب أكتوبر وربما أشد ضراوة وظللنا نعمل وندرس ونكافح بلا هوادة، سنوات طويلة ولم تستطع امى بالطبع أن تنفق على تعليم كل هذا العدد من الأبناء، فكانت بحكمتها الفطرية تعمل بمبدأ أن من يتفوق فى دراسته، يواصل الدراسة الى غايتها النهائية مادام مستعدا لها وعلى شرط ان يعمل فى شهور الصيف، اما من يتعثر فى الدراسة فليس امامه سوى الخروج الى مدرسة الحياة، لكى يساعدها على سد هذه الأفواه الجائعة، وصمد اخوتى للتعليم لفترة من الزمن.. ثم بدأوا يتساقطون فى الطريق ويخرجون من التعليم للعمل بالزراعة بأجور زهيدة واحدا بعد الآخر، ولم يصمد منهم لطريق التعليم حتى نهايته سواى، وسوى اخى الاكبر الذى تخرج فى كلية التربية وعين مدرسا للغة الإنجليزية، وتنفست أمى الصعداء بعض الشئ بعد تخرجه وبعد أن ساهم بعض أخوتى الآخرين بأجورهم القليلة من الزراعة فى ميزانية الأسرة، لكن ظروفنا القاسية ما كادت تتحسن بعض الشئ حتى تعرف أخى بزميلة له فى العمل وتزوج منها ورحل بها إلى بلدة أخرى غير بلدتنا... وتبدد سراب الأمل الذى تعلقت به أمى لفترة قصيرة كالحلم فى تحسن احوالنا المعيشية، ورجعت ظروفنا الحياتية إلى ماكانت عليه من قبل وترك تخلى أخى الاكبر عن واجبه فى مشاركة أمى مسئولية الأسرة غصة عميقة فى نفسها، ولم يعد لها من أمل فى أحد بعد الله سبحانه وتعالى سوى فى شخصى الضعيف، وتجاوزنا هذه المحنة كما تجاوزنا ما سبقها من محن وأهوال، ونجحت فى الثانوية العامة فجاء ترتيبى الأول على المدرسة، والثانى على مستوى الإدارة التعليمية بمجموع ٩٠٪ وأصرت أمى وإخوتى على أن ألتحق بكلية الطب مادام مجموعى قد أهلنى للالتحاق بها ومهما كانت التكاليف والصعاب، والتحقت بها بالفعل.. واستعنت بالعمل خلال الصيف على الانفاق على نفسى خلال شهور الدراسة، بغير ان اضيف إلى أمى وإخوتى أية أعباء مادية جديدة، الى ان وصلت الى السنة الرابعة فبدأت معاناتى الحقيقية مع هذه الدراسة، فلقد تواصلت الدراسة بعد هذه السنة بلا عطلة صيفية، وانقطع مورد العمل بالنسبة لى فبدأت فى طلب المساعدة من أمى وإخوتى لأكمل مشوارى ولم يبخلوا على بها.. وواصلت الدراسة حتى وصلت الى السنة السادسة والنهائية، وأنا أمنى نفسى بالحصول على البكالوريوس، والعمل ومشاركة امى أعباءها ورد الجميل لها ولإخوتى الذين اقتطعوا من قوتهم لكى يعينونى على استكمال مشوار التعليم، ثم حدث أن كنت فى زيارة لإحدى قريباتى فى بلدة مجاورة لنا فرأيت لديها ابنتها الطالبة بمعهد التمريض وتوقفت امامها مذهولا! ياربى... لقد عشت سنوات عمرى الماضية كلها مشغولا بمعركة البقاء على قيد الحياة فلم التفت الى شئون الحب والعاطفة والجنس الآخر، ولقد خططت لحياتى أن أؤجل اكتشاف هذا العالم السحرى الى ما بعد تخرجى بسنوات طويلة أكون خلالها قد رددت الجميل لأمى وإخوتى، ووضعت أسس بنيان حياتى، كما يقضى بذلك العقل وظروفنا، لكن ماذا تقول للقلب الذى لا يستمع إلى صوت العقل فى بعض الأحيان، ولا يتقيد بضوابطه!

لقد وجدت نفسى مشدودا الى هذه الفتاة وأحببتها حبا يفوق الخيال متسائلا: هل يجوز لمن كان مثلى أن تراوده أحلام الحب والسعادة فى مثل ظروفه كالآخرين؟

.. ولم اجب على السؤال الإجابة الحكيمة المتوقعة بالنفى، وانسقت وراء مشاعرى وإعجابى بأخلاق هذه الفتاة وأدبها وتدينها ووجدتنى ايضا افاتح امى فى امرها وأنا مشفق عليها مما سوف تحس به من غصة لتكرار نفس التصرف الذى اقدم عليه شقيقى الأكبر.. لكن أمى أعلنت لى موافقتها على ارتباطى بها ولم يفت على بالرغم من ذلك ما تحمله نظراتها من الم وحسرة وهى تؤكد لى انها تطلب لى السعادة وسوف تسعد بسعادتى أينما وجدتها واندفعت تجاه هذه الفتاة اندفاعا قويا بتأثير الحب والحرمان واكتشاف ان فى الدنيا أشياء أخرى الى جوار عناء تدبير القوت اليومى الضرورى ونفقات التعليم، وتحدثت الى والدها فى ارتباطى بابنته فوافق مرحبا، ووجدتنى بعد هذه الخطوة أمام الاختيار الصعب الذى أرجو أن تعيننى برأيك على مواجهته.. وهو الاختيار بين أن أكون انسانا وفيا لأسرتى وارد اليها الجميل فأضحى بحبى لهذه الفتاة وأصرف النظر عن حلم الارتباط بها، وفى هذه الحالة سوف أفقد الإنسانة الوحيدة التى احببتها ووجدت نفسى معها منذ تفتحت مداركى للحياة، وبين أن أكون أنانيا وأواصل طريق الاحلام السعيدة مع هذه الفتاة الى النهاية، وفى هذه الحالة سوف أكرر ما فعل شقيقى الأكبر وأترك أمى بلا معين واختى التى لم تتزوج بعد وأخوين أصغر منى يعملان بالزراعة!

إنه ليس اختيارا سهلا ياسيدى لأن تفضيلى لأحد الاختيارين على الآخر سوف يترك اثرا غائرا فى نفسى وروحى لا تمحوه السنون كما ان التوفيق بين الرغبتين او الطريقين هو المستحيل بعينه، ولقد فكرت طويلا فى قطع علاقتى بهذه الفتاة، لكنه حتى لو استطعت ان اضع قلبى تحت قدمى وفعلت ذلك، فماذا يكون موقفها بين أسرتها والجميع يعلمون بارتباطى بها.. وانا احترمها كثيرا وأحبها كثيرا ولا أريد أن أجرح مشاعرها بفعل أو تصرف يسئ اليها؟ اننى أعيش فى حيرة شديدة، ولقد اقترب موعد امتحانى النهائى بعد بضعة أيام ومازلت حائرا وموزعا بين واجبى تجاه امى واخوتى وبين عاطفتى تجاه الفتاة الوحيدة التى أحببها قلبى وسكنت اليها نفسى.. فبماذا تنصحنى ان افعل وأن اختار ياسيدى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

انه اختيار صعب حقا ياصديقى، تذكرت معه وانا افكر فيما أشير عليك به بشأنه، ما رواه الأئمة من ان السلف الصالح من الصحابة والتابعين كانوا يكرهون التسرع فى الفتوى، ويتمنى كل منهم فى أعماق نفسه لو قام بها غيره فكفاه مؤنتها استشعارا لثقل الأمانة وعظيم المسئولية.. كما تذكرت ايضا ما روى عن الإمام ابى حنيفة النعمان رضى الله عنه حين قال: «لولا الفرق - اى الخوف - من الله ان يضيع العلم ما افتيت احدا يكون له المهنا.. ويكون على الوزر».

لكننى على الناحية الأخرى، لا استطيع بالرغم من ذلك ان احجب عنك رأيى استشعارا لثقل الامانة وصعوبة الاختيار وانت تقف امام هذه اللحظة الفاصلة فى حياتك، ولنبدأ معا فى تحليل عناصر الموقف الذى تواجهه، لكى نتوصل معا بإذن الله الى المخرج المأمون منه فالحق انك تواجه هذا الاختيار التقليدى بين نداء الواجب العائلى والإنسانى الذى يفرض عليك تأجيل كل أحلامك الشخصية الى ان تترفق الحياة بعض الشئ بامك وأسرتك وتقترب سفينتها المجهدة من شاطئ الأمان، وبين أن تتخلى عن هذا الواجب وتنصرف الى تحقيق أحلام السعادة الشخصية مع من خفق لها قلبك لأول مرة، تاركا امك وأسرتك لأقدارها كما فعل من قبل شقيقك الأكبر. وترى ان التوفيق بين هذين النداءين او الاختيارين مستحيل ولا أمل حتى فى محاولته!

وعند هذه النقطة فلقد اختلف معك، واقول لك، ان ارتباطك بمن تحب وان كان قد يبدو لك من الوهلة الأولى تخليا عن واجبك العائلى تجاه أمك وإخوتك الا انه ليس بالضرورة كذلك حتى ولو كانت ظروفك المادية صعبة للغاية.. فالحق ان ما يعنى امك واخوتك الذين مازالوا فى كنفها حتى الآن ليس هو مساعدتك المادية الشحيحة لهم عقب تخرجك وعملك كطبيب امتياز لا يتجاوز مرتبه بضع عشرات من الجنيهات، وانما ما يعنيهم بالاساس هو الا تنسلخ عنهم وتغترب عنهم بافكارك واهتماماتك، فيشعروا بأنهم قد فقدوك للنهاية حتى ولو أعانتك الظروف على أن تمدهم ببعض العون المادى الضئيل أو الكثير، فالانتماء للأسرة، وتبنى شواغلها وهمومها ومشاكلها والمشاركة الجدية فيها هو الذى يميز بين من لم يتخل عن ارتباطه بأسرته وبين من تركها لأقدارها وانصرف لشئونه الخاصة قانعا بوصوله وحده الى شاطئ الأمان حتى ولو كان قد أسهم ببعض دخله فى تخفيف جفاف الحياة عن الأسرة..

والغصة المريرة التى مازالت تحسها والدتك تجاه شقيقك الأكبر حتى الآن لا ترجع فى تقديرى الى قبض يده عنها بما كان يستطيع أن يسهم به فى تخفيف عناء حياتها وحياة إخوته فقط وإنما ايضا لانه قد قفز من السفينة ناجيا بنفسه من مصيرها واغترب نفسيا عن اسرته، وانكفأ على حياته الشخصية وشئونه الخاصة مشغولا بأمره عن مشاركة امه المسئولية المادية والعائلية عمن مازالوا يلاطمون امواج الحياة القاسية معها من الابناء، ولو كانت ظروفه قد اعانته بالفعل حتى بعد هذا الاغتراب المكانى عن امه على مساعدتها ماديا مع استمرار نأيه بنفسه عن هموم والدته وإخوته ومشاكلهم وامنياتهم وأحلامهم، لما خفف ذلك كثيرا من مرارة هذه الغصة فى حلقها وهكذا فإنك تستطيع اذا اردت ان تتخلى عن أحلام السعادة مع فتاتك وتبقى فى الجوار ثم تنفصل نفسيا عن اسرتك وأمك وإخوتك، فلا يفيدون من قربك منهم شيئا كثيرا حتى ولو أعنتهم على أمرهم بشئ قليل من دخلك الشحيح فى المستقبل!

ونستطيع ايضا - اذا اقتضت ضرورات العمل ذلك - أن تنتقل الى اقصى البلاد، وتظل فى نفس الوقت الابن البار بأمه والوفى لأسرته واخوته والذى يحمل همومها معه الى اقصى انحاء الكرة الارضية، حتى ولو ضاقت يده عن ان تقدم لها كل ما يتمنى ان يقدمه لها من عون او مساندة مادية..

فالقرب والبعد عن الاسرة، ليس بالمكان يا صديقى، وانما بالانتماء للأسرة ايا كان مقام الإنسان.. او التنكر لها ولو كان يحيا بين ظهرانيها، والإحساس بالواجب العائلى عن الأسرة، والاستعداد النفسى الدائم للعطاء للاسرة ومشاركتها همومها واحلامها وشجونها، وما أكثر من فرقت المحيطات بينهم وبين اسرهم طلبا للرزق والنجاح، ومع ذلك فهم أوفى الأوفياء لأمهاتهم وإخوتهم وابر الجميع بهم.. وأكثرهم تحملا للمسئولية الإنسانية والعائلية والمادية عنهم، فكأنما لم يفارقوهم لحظة، وقد يكون من بين المقيمين بين افراد الاسرة من لا يشاركون اسرتهم المسئولية عنها او الإحساس بالواجب العائلى تجاهها لانهم متوحدون مع أنفسهم وليس مع اسرهم، وعلى ضوء هذا المعيار فليس من النبل أن أشير عليك بأن تكون أنانيا تطلب سعادتك الشخصية وحدها على حساب التخلى عن واجبك فى مشاركة والدتك المكافحة مسئوليتها عن إخوتك الأصغر، او على حساب التنكر لمن أعانوك من إخوتك المكافحين بقوت يومهم الشحيح على استكمال مشوار التعليم، وليس ايضا من الرحمة ان اشير عليك بأن تتخلى عن حلم السعادة المشروعة مع اول انسانة خفق لها قلبك ونبهتك الى ان فى الدنيا أشياء أخرى جميلة، الى جوار عنائها وأحزانها، فتترسب المرارة فى أعماقك، ويساورك الإحساس المؤلم بأن اسرتك قد ضاعفت من عناء حياتك بحرمان نفسك ممن أحببت استشعارا لواجبك تجاهها.. فتخالط احساسك العائلى تجاه اسرتك مشاعر سلبية مكتومة ينطوى عليها صدرك وتصورها لديك وكأنها عبء ثقيل ترزح تحت وطأته وليسوا بشرا محرومين ولا ذنب لهم فى أقدارهم وظروفهم القاسية.. وإنما هناك دائما من مطالب الحياة ما ينبغى ان تكون له الاولوية على غيره من المطالب.. وبغير ان يعنى ذلك تخلى الإنسان عن مطالبه المؤجلة وأحسب أن هذا الاختيار الصعب الذى تواجهه الآن لا ينبغى له أن يكون اختيارك وحدك وانما ايضا اختيار فتاتك او «امتحانها النهائى» الخاص بها لإثبات صدق رغبتها فيك واستعدادها للصبر عليك الى ان تسمح لك الأقدار بتحقيق أحلام السعادة معها.

فأما ديون إخوتك فتستطيع الوفاء بها خلال عامك الأول من العمل وأما رد الجميل لأمك المكافحة الصابرة فلن تستطيع أن توفيها أجرها عنه ولو حرثت الأرض تحت قدميها بقية الدهر، وإنما تستطيع فقط أن تشعرها بأنك الابن البار بها المقدر لعطائها وكفاحها وصبرها، وأن تخفف عنها بعض جفاف حياتها بما تملكه يداك وتطمئن قلبها وخواطرها - وهو الأهم - الى انك لن تتخلى عنها ابدا ولو كنت فى اقصى الأرض، وانك بإحساس هذا الابن الذى يقدر مسئوليته العائلية سوف تعلن خطبتك لفتاتك فى الوقت المناسب وتعاهدها على الصبر عليك الى ان تطمئن الى ان شقيقتك التى لم تتزوج بعد قد وضعت قدميها على بداية طريق الأمان والاستقرار.. لانك تعتبر احلامك فى اتمام زواجك بمن تحب مؤجلة مؤقتا الى ان تقوم بما تسمح لك به ظروفك فى مشروع ارتباط أختك واستقرارها بإذن الله..

وليس كل ذلك من ضرب المستحيل او أحلام الخيال.. وانما هى فترة زمنية ضرورية كان مشروع ارتباطك بفتاتك سوف يستغرقها فى كل الظروف والاحوال.. ولن يضاف اليها إلا اقل القليل، ولن يجد عليها سوى ان تخصص بعض دخلك القليل لأسرتك وتجاهد فى الحياة كما جاهدت من قبل لتحقيق اهدافك ولسوف تعينك فتاتك المتدينة البارة بأبويها، على أن تبر بأمك واخوتك، وتظل أمل الأم المجاهدة فى تحسن الأحوال ذات يوم قريب وبغير أن تتخلى عن سعادتك الشخصية بإذن الله... ولا عجب فى ذلك ولا غرابة فانت - كما قلت مرارا وتكرارا - احد ثلاثة أنبأنا الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه انه حق على الله عونهم.. وهو «الناكح الراغب فى العفاف» فادخل امتحانك النهائى مطمئن النفس الى انك لن تتخلى عن اسرتك ولا عن فتاتك واجتزه بنجاح لتستعد من بعده للامتحان الأكبر الذى تؤدى فيه واجبك تجاه والدتك واسرتك ولا تتخل معه فى نفس الوقت عن حقك المشروع فى السعادة، وعن نصيبك المقدور لك من الدنيا، ولسوف يعينك الله بمدد من عنده على خوض هذا الامتحان القاسى والنجاح فيه بإذن الله.